التبنى

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾

(الأحزاب الآية ٤)

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (الأحزاب الآية ٥)

﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾

(الأحزاب الآية ٥)

* * *

جرت سُنَّة العرب ، على التَّبَنِّى ، واتخاذ أبناء الغير أبناء .

وكانوا يجعلونهم محل الأبناء من الصلب والنسب ، فيخلعون عليهم من الحدب والكفالة ، ومن التوريث ، ومن الإقامة بين المحارم ، ويتوجونهم بأسمائهم وألقابهم ، وأمجاد قبائلهم وأسرهم ، حتى لكأنهم من أصلابهم .

* * *

وكان هؤلاء الأبناءُ الأدعياءُ ، سدًّا منيعًا فى وجه الأهل والأقرباء ، فى وجه الوالدين ، والإخوة والأخوات والأهل فى الميراث ، وفى حرمانهم من المودة والمحبة ، وكانوا سببًا فى كثير من مشاكل الأسرة .

* * *

وكانوا بذور الكراهية ، بين الرجل الذى تبناهم وبين أهله ، وكانوا ينظرون إلى هذا الدعى ، وقلوبهم ضائقة به وعواطفهم جامدة عليه ، فهو مقتحم عليهم أسرتهم ، ودمه ليس من دمهم ، وإذا ورث اسمهم ، ومجد أسرتهم ، فسرعان ما يتحلل منه ، ويتنكر له . ويخلع النسب الذى أضفوهُ عليه .

وهو إذا حجب الورّاث ، واستحوذ على المال ، كان هذا المال هيّنًا عليه فيبدده ويهلكه فى الكيد لهم .

وهو إذا أقام فى منزل الرجل الذى تبناه ، مع زوجته ، لم يجد من نفسه ولم تجد من نفسها عاطفة بنوة ولا أمومة .

* * *

وجرت سُنَّة العرب ، أن يكرموا هؤلاء الأدعياء ، فيحرموا على أنفسهم أن يتزوجوا زوجات هؤلاء المتبنّين ، إذا طلقوهن ، أو ماتوا عنهن ، وكان هذا الحرج ، أظهر مظاهر التَّبنى والادعاء .

وسبق فى علم الله ، أن يحرِّم التبنى والادعاء ، لما فيه من تعكير صفاء الأنساب ، ولما فيه من خلق الكراهية من الأقرباء ، ولما فيه من تحد لإرادة الله حين

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ
ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

(الشورى الآيتان ٤٩/٥٠)

* * *

وهيأ الله ، جلت حكمته ، لهذا التحريم سببًا ، يهدم به هذا العرف ، ويقوض به أركان هذا التقليد .

وأن يكون معولُ الهدم ، والخارجُ على العرف ، والمستهدفُ للتجريح والنقد ، هو محمّدًا نفسه . فهو أقدر على التجريح والنقد ، وهو أجلد على مجابهة الغمز واللمز .

* * *

كان ذلك يوم أن وهبت السيدة خديجة ، مولاها وعبدها ، زيد بن ثابت الذى اشترته بمالها ، لزوجها محمد . ليكون عبده ومولاه .

والنبى ، محرر للعقول ، فكيف لا يعتق الجسوم ؟

فأعتق زيدا ، وتبناه ، وأكرمه ورعاه ، وأفرغ عليه عاطفة الأبوة الشاغرة وعرف الناس أنه ابن محمد ومتبنّاه .

وأراد النبى ، أن يتوج هذا العطف على مولاه زيد بن حارثة ، بأن يزوجه ، وأن يزوجه إحدى كرائم العرب ، وذات الأصل والحسب .

وكان أن اختار له ، زينب بنت جحش ، وهى بنت عمته ، وخطبها له .

واستعظمت زينب ، واستعظم أخوها عبد الله ، أن يتزوج زيد هذا ، فتاة عربية أصيلة حرة ، لم يجر فيها استعباد ولا رق كما جرى فيه ، مهما كان مولى النبى ، ومهما كان قد أعتقه .

ولكن القرآن نزل يحطم هذه العنجهية ، ويروِّض هذه العصبية المترفّعة :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (الأحزاب الآية ٣٦)

وتزوج زيد بن حارثة ، العبد المولى ، زينب الحرة الأصيلة الجميلة وعاشا زمنًا ، يتودد إليها ، فلا تود ، وتروض نفسها على زوجها ، مرضاة التزاما لاختيار النبى ، ويحس زيد منها كل آونة ، تكرُّهًا وتأبيًا وتساميًا .

ويسبق فى علم الله سبحانه ، أن هذا زواج ، له نتائجه وخطورته .

* * *

والنبى يدرك ، أن هذا زواج على تكرُّه وتأبٍّ ، وأنه لابد صائر إلى الانفصال .

* * *

ولكنه لا يسبق الحوادث ولا يتعجلها ، ولا يود أن يفصل فيه ، من قبل أن يفصل الله فيه .

فإذا جاءه زيد متبرما من كبرياء زينب ، واستعظامها عليه ، شاكيًا منها مستأذنًا فى طلاقها ، استمهله النبى ، وطيب نفسه ، ووعظه وصبَّره .

ويدخل عليها النبى فينصحها ، ويسلس جموحها على زوجها ، ويروضها على الرضا بإرادة الله .

ويخرج فيقول لزوجها : أمسك عليك زوجك ، فهى كريمة وأصيلة واتق الله فيها ، وعالجْ فيها هذه الأنفة ، ولا تطلقْها ، فتكسر نفسها ، وتطلق ألسنة الناس فيها ، فالطلاق فجيعة النساء .

* * *

والنبى يقول ما يقول بلسانه ، ونفسهُ مدركة نهاية هذا الزواج ، ويخفى هذا الإدراك ، ويستر ما يعلم ، حتى يُظهره الله .

والنبى يدرك ويعلم أن تطليقها سيحدث رجة فى المجتمع ، وخلخلة فى التقاليد .

والنبى يخشى أن يقرَّ تطليق الزوجة ، إذا تأبَّت على زوجها العتيق .

والنبى يخشى أن يطلق زيد زينب ، فقد تصبح زوجة للنبى ، من بعد زيد مولاه ، فيخرق العرف ، وينقض التقاليد ، إذا تزوج زوجة متبناه فيدركه الحرجُ ، ويدرك الناس .

والنبى من أجل هذا ، يخفى فى نفسه ما الله مبديه ، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾

(الأحزاب الآية ٣٧)

وما الإنسان ، إلا عقلٌ وعواطف ، فإذا غلب العقل على العاطفة ، كان ذلك خير ما يرجى من إنسان مهذب عاقل ، لا تغلبه عواطفه ، ولا تستهويه شهوته ، ولا تستبد به نزوته .

فإذا منح الله الأمان من العواطف لإنسان ، وضمن له السلامة من الزلل ، كان ذلك هو العصمة ، لا تمنح إلا للأنبياء .

* * *

ولكن ليس معنى العصمة والأمان من الزلل ، وتغليب العقل ، ورجحان البصر على العواطف والوجدان ، أن عواطف المعصومين قد ماتت ، أو أن أحاسيسهم قد تبلدت ، أو وجداناتهم قد سقمت ، أو عيونهم قد انطرفت عن مشاهدة جلال الله فى جميل صنعته ، وإدراك الجمال البادى فى خلقه .

* * *

هم ناس ، لهم إحساس ، ولكنهم معصومون ، يرون الجمال ، فيقع فى نفوسهم ، أو يقعون فيه ، فيتحركون له ، ولكنهم فى نطاق العصمة محروسون .

* * *

وإذن فلا غرابة ، أن رسول الله ، حين دخل يحدثها فى شأن زوجها وقد تبدت له ، أن وقعت فى نفسه ، فسبَّح الله فى جلاله ، ومجده فى جمال خلقه ، وهمَّ خارجًا من فوره ، وقال : سبحانك يا مقلب القلوب .

ورأت زينب ذلك منه ، وسمعت تسبيحه ، فأشفقت على النبى ، وذكرت ذلك لزيد بن حارثة .

فدخل فى نفسه شىء منها ، واستشعر فى نفسه فرق ما بين منزلته وقدرها ، فطلقها .

* * *

وكان سفيرًا فى تزويجها من النبى ، ليمتحن الله قوته فى إيمانه ، وسيطرته على نفسه وغيرته ، ورسوخه فى عقيدته ، وأن ذلك إنما كان تشريعًا للناس ، لا إشباعًا ، ولا اتباعًا لهوى .

* * *

وتزوجها النبى ، وحطم ذلك التقليد العتيق ، المحرج للعرب الجالب للنفرة ، المُقطِع لأوصال القرابة .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (الأحزاب الآية ٣٧)

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ﴾ (الأحزاب الآية ٤)

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ ﴾ (الأحزاب الآية ٥)

﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ ﴾ (الأحزاب الآية ٥)

وكانت تلك منزلة شريفة ، هزت نفس زينب ، وزادهتها واستخفتها فرحًا بزواجها من رسول الله .

فكانت تباهى وتفاخر بها زوجات النبى الأخريات .

وكانت تقول لهن : أنا خير منكن . فقد زوجكن آباؤكن وأولياؤكن ، وأما أنا ، فقد تولى الله تزويجى من رسول الله .

فأين منى أنتن !

* * *